جمال الشرقاوى

«فى نهايات عام ١٩٥١ زرت قريتنا مع أبى والتف الفلاحون حول الأفندى الذى هو أنا وتحدثت إليهم بحماس وقلت ثقوا أن الشعب سوف يثور ضد الملك فقابلوا حماسى بلا مبالاة، وعندما قامت ثورة يوليو أتوا إلى بيتنا وهم يسألون فى فرح شديد هو حضرتك «شيخ مكشوف عنك الحجاب؟» فقلت لا، لكن السياسة علمتنى أن أتطلع إلى المستقبل».
«جمال الشرقاوى.. من رسالته إلى»

«أبى عامل بسيط، أتى من طنطا باحثا عن رزق فى القاهرة، توسط له بلدياته البطل الأوليمبى سيد نصير فحصل على وظيفة فى مطار ألماظة، أقام هو وأسرته فى شقة صغيرة فوق سطح عمارة فخمة فى مصر الجديدة أغلب سكانها خواجات يونانيون وأرمن وأسرة واحدة مصرية قبطية، المنطقة جميلة بها مساحات خضراء كثيرة وأمامنا عمارة أكثر جمالا يسكن بها جنود إنجليز وأسرة اللواء محمود عكاشة والد د. ثروت عكاشة ود. أحمد عكاشة» (جمال الشرقاوى من رسالة خطية كتبها بناء على طلبى).

وعندما يحين موعد دخول المدرسة اصطحبته الأم الأمية، سحبته من يده إلى أقرب مدرسة وكانت مدرسة إلزامية، وبعد سنتين نقلوا كل التلاميذ إلى مدرسة فى صحراء ألماظة وكانت مدرسة مشتركة بنين وبنات وكل تلاميذها تقريبا من أبناء العاملين فى مترو مصر الجديدة، الناظر والمدرسون أعجبوا بتفوق جمال وكان دائما «الألفة» على الفصل، ونعود إلى رسالة جمال «قبل شهر ونصف الشهر من نهاية العام الدراسى الأخير فى المدرسة استدعانى حضرة الناظر وقال لى: يا جمال أنت ولد شاطر ومتفوق، فهل فكرت ماذا سنفعل بعد انتهاء دراستك هنا؟ وكان السؤال أكبر من سنى بكثير ولم أجب فقال: أنا والمدرسين بنحبك وعايزينك تتشطر وندخلك مدرسة المعلمين وبعد خمس سنين تتخرج مدرس زينا» وفى اليوم التالى حضر أبى الذى لم يتعلم سوى فترة وجيزة فى الكتاب

ووافق طبعا، فقال الناظر: مدرسة المعلمين تشترط أن يكون الطلبة قبل قبولهم قد حفظوا بعضا من القرآن والأستاذ حسبو مدرس العربى سيقوم بتحفيظك القرآن.. ولشهر ونصف الشهر وتحت وطأة مسطرة الأستاذ حسبو حفظت ربع القرآن» لكن المصادفة وحدها أنقذت جمال من مدرسة المعلمين فأحد الجيران حصل على شهادة الابتدائية فى سنة واحدة ثم شهادة الثقافة فى سنة تالية.. كانت اللغة الإنجليزية هى العقبة فأخذ درسا مقابل جنيه فى الشهر مع الأستاذ أحمد المويلحى شقيق محمد المويلحى صاحب «حديث عيسى بن هشام». ناظر المدرسة الأولية ظل يتابع خطى تلميذه فاستدعاه وأعطاه دروسا مجانية فى العربى والحساب وامتحن جمال وحصل على الابتدائية منازل عام ١٩٤٨، لكن الأب عجز عن تدبير مصروفات المدرسة الثانوية، فظل عامين بلا عمل خلالها قرأ جمال كثيرا ثم ويالالدهشة ألف رواية للسينما هو وصديق له، وأخذ يطرق بروايته أبواب أهل السينما حتى ساقته قدماه إلى الفنانة القديرة بهيجة حافظ التى طلبت منه أن يلازمها لتعلمه السينما وفى صالون بهيجة حافظ التقى جمال بالكثيرين وتعلم الكثير.

وفى هذا الصالون تعرف على سامى الليثى المحرر الفنى لروزاليوسف وأطلعه على بعض ما يكتب فأخذه من يده إلى إحسان عبدالقدوس «وطلب منى إحسان أن أكتب أخبارا ونصحنى ألا آتى بأخبار بايتة، وتجولت فى الشوارع لألتقط أخبارا من هناك، لكننى وبعد فترة وجدت نفسى فى الثامنة عشرة ولا أنا صحفى ولا أنا طالب، فتركت روزا ودخلت مدرسة راغب مرجان الليلية وكانت تدرس منهج السنوات الثانوية الأربع فى سنة واحدة توظفت فى مصلحة الضرائب ودبرت احتياجاتى ومصروف المدرسة وقفزت إلى التوجيهية فى سنة واحدة» وقبل إعلان النتيجة قبض عليه أثناء تسليمه لفافة منشورات إلى رفيق آخر.

كان جمال قد أصبح شيوعيا، شارك فى أنشطة جماهيرية كثيرة مع عديد من صدقائه مصر الجديدة حتى أحضر أحدهم معه شابا نوبيا هو زكى مراد ومع زكى تفتحت أمامه آفاق وعى وجديد، وضوء جديد «وفى لقاء حزبى سألنى مسئول هناك اتجاهان فى التنظيم أحدهما ثورى والآخر انتهازى، انت مع مين؟ وطبعا قلت مع الاتجاه الثورى.. وأصبحت عضوا فى الانقسام الذى قاده الرفيق بدر السكرتير العام والذى أسمى «حدتو – التيار الثورى». إنقسم جمال مع المنقسمين واعتبرها بعد ذلك غلطة عمره، وقرر أن يهب طاقته لتوحيد الشيوعيين، وظل يحاول ويحاول ويناقش وكأنه كان المبشر الوحيد بوحدة

الشيوعيين، لكن التوحد لم يكن مجرد رغبة لأفراد وإنما قدرة على التخلص من المناكفات المتراكمة والعداوات التاريخية، أسهم جمال فى تحقيق وحدة الموحد، وتحمل عبء الدعوة لها خارج السجن وداخله، وعندما تمت الوحدة فى ٨ يناير ١٩٥٨ كان لم يزل فى السجن وإذ يفرج عنه فى يونيو ١٩٥٨ خرج وهو يحلم بانطلاقة كل الشيوعيين الموحدين فى حزب واحدة، لكنه صدم فقد كانت الوحدة شكلية.. توحدوا لكنهم كانوا يكبدون لبعضهم البعض وامتلأت الاجتماعات والجلسات الفردية بالنميمة، وحاول جمال عبثا.. لكن المشكلة لم تكن كبيرة فى البداية فقد تم تنظيمه عضوا فى لجنة قسم الزيتون وتضم الزيتون ومصر الجديدة والمطرية وكان كل أعضاء لجنة القسم من رفاق الحزب الشيوعى الموحد أى من تيار حدتو ولهذا لم تظهر مشاكل كبيرة باستثناء داء النميمة ثم كان إشهار الانقسام. هو وجد نفسه فى حيرة رفاقه القدامى انقسموا وهو عاهد نفسه على عدم الانقسام فبقى مع مجموعة كانت تتشكك فيه وتلوك شعارات شديدة التطرف وتتهم كل رفاقه القدامى بأنهم انتهازيون وأحيانا يقولون إنهم عملاء، ونمضى معه فى محضر نقاش «تواترت أنباء عن أن مجموعة ع. ف قد أخفت عددا من أعضائها ولم تسلمهم للحزب وبدأ الحديث عن مجموعة الشبح وكذلك فعلت منظمة الراية، كنت دوما ألح على الوحدة الحقيقية دون جدوى ثم كانت حملة القبض فى يناير ١٩٥٩، أنا هربت وواصلت العمل فى ظروف شديدة القسوة وجرى تصعيدى إلى سكرتارية منطقة القاهرة حتى قبض على فى نهاية ١٩٥٩، وعشت مرغما مع مجموعة تقتات الجمود العقائدى والعداء لكل ما له علاقة بحدتو، وعندما استشهد شهدى كنت فى سجن القناطر فهذا الذى يصفونه بأنه يمينى وعميل للسلطة يموت شامخا تحت وطأة التعذيب وهو يقول أنا شيوعى»، (محضر نقاش أجريته معه فى ١٦ يناير ١٩٨٥)، وبقيت مؤرقا وسط مجموعة لا أحبها ولا تحبنى، وعندما خرجنا من السجن لم أشعر أن هناك رغبة حقيقية فى إقامة تنظيم فعلى، ثم كان أن أعد تقرير أعتقد أن كاتبه كان أبوسيف يوسف جاء فيه بعد تحية كفاح الشيوعيين التأكيد على وحدة القوى الاشتراكية ثم قال بحل التنظيم المستقل كمساهمة فى إقناع النظام بأهمية خلق هذه الوحدة، أنا طبعت هذا التقرير على جهاز رونيو بدائى جدا، طبعت عدد محدود جدا من النسخ وزعت على عدد محدود من الرفاق وعقد كونفرنس حضره فقط ١٩ رفيقا وصوتوا برفع الأيدى على حل الحزب» (محضر النقاش).

وبعدها كان جمال الشرقاوى فى جريدة الأخبار عندما أصبح خالد محيى الدين رئيسا لمجلس إدارتها، ولمع اسمه كصحفى قادر على شن حملات صحفية من أجل موضوع مهم، ولمع أكثر فى حملته حول زراعة القمح لتحقيق الاكتفاء الذاتى، ثم لمع اسمه أكثر وأكثر عندما أصدر أهم كتاب موسوعى عن حريق القاهرة، ثم مزيدا من التألق إذ يصبح مديرا لتحرير جريدة «الأهالى» فى أوج مجدها، ثم مسئولا مع محمود أمين العام وماجدة رفاعة فى إصدار واحدة من أهم المصادر الفكرية الماركسية وهى سلسلة قضايا فكرية، وهكذا وبدأب هادئ، وإصرار لا ضجيج فيه عاش جمال على الدوام وهو يتنفس النضال الاشتراكى.. ولكن

وإذا كانت النفوس كبارا

نعبت فى مرادها الأجسام

مرض جمال ولم يزل، لكنه يظل مقاتلا بقلمه.. على صفحات الأخبار وعلى صفحات «الأهالى»، ولم يزل قادرا على الإبداع وعلى طرح قضايا الوطن لعل الناس تفيق.

عزيزى جمال سلامتك ألف سلامة، ودمت لنا.